امبراطور المانيا والحرب

(٧)

الامبراطور وكتاب لوثر(١)

اشرت في نبذة سابقة الى استهجان الامبراطور ما يبدي الالمانيه الاميركيون من الاهتمام بالعاديات والاقبال على شرائها باثمان غالية في حين انهُ يعوزهم في زعمهِ التثقيف العالي اللازم لقدر هذه الاشياء قدرها ووضعها في محلها . قال لي مرة « هذا مورغان فقد اشترى كتاباً بخط يد لوثر دفع ثمنهُ ١٥ الف جنيه . فاي حق لمورغان الاميركي في الاحتفاظ بهذا الكتاب وهو ليس متعلماً علوماً عالية بحيث يقدرهُ قدرهُ وانما مكنتهُ اموالهُ من شرائهِ . فالكتاب يخصُّ متحف مارتن لوثر في وتنبرج وساطلبهُ من مورغان »

ولم يمضِ على هذا الحديث كثير حتى سمعت ان الامبراطور دعا مورغان لحضور سباق اليخوت في كيال وانهُ اعطى الامبراطور كتاب لوثر فجوزي على ذلك بنشان العقاب الاسود من الدرجة الثانية

على ان اغتباط الامبراطور من وجود كتاب لمارتن لوثر في بلد غير المانيا لا يتفق مع ما كان يبدي من الاغتباط والانبساط برؤيتهِ في احد متاحف برلين الآلات الفلكية القديمة البديعة التي نهبها الالمان من بلاد الصين في ثورة البوكسر

فورد الاميركي والصلح

لم يدخّر الامبراطور البتة جمع المال في المشروعات التجارية الكبيرة بل طالما اعرب عن اعجابهِ بنجاح كبار اصحاب المصانع والمتاجر الاميركية وما يبدو على اعمالهم من الضبط والدقة . ففي سنة ١٩١٦ سألتهُ هل سمعت بان المستر فورد قادم من اميركا مع وفد في باخرة استأجرها خصيصاً لهُ . فقال « من تعني — اتعني فورد صاحب مشروع الصلح » فاخبرتهُ بما قرأت عنهُ في الصحف فاجاب « كيف تسمح بلادكم لرجل مثل هذا بعمل هذا العمل — رجل لم يشتغل بسياسة بلاده

(١) المصلح الديني الشهير في المانيا واليه ينتمي البروتستنت عامة

ويجهل المسائل الدولية كلّ الجهل. وقد سمعت ان قد كانت لهُ علاقة بعمل دراجات (بيسكلات) من قبل وانهُ لا يعرف شيئاً خارج دائرة هذا العمل . لا ريب عندي انهُ من كبار رجال الاعمال والمتاجر وانهُ حسن الطوية فيما يرمي اليهِ ولكن من الخطإ الفاضح ان يترك رجل يجهل شؤون العالمين ليسعى سعياً موجباً للهزء والسخرية مثل هذا »

فقلت لهُ اني قرأت في بعض الصحف الاميركية انهُ اذا شاء فورد حقيقة انهاء الحرب فما عليهِ الاّ ان يدفع مئة مليون ريال الى المانيا ويشتري البلجيك منها . قال « مئة مليون ريال » ثم جعل يقدح زناد الفكر كأنهُ يعدّ ويحسب وقال « لا يادايتز ان ثمن البلجيك اكثر من هذا ». فجال في خاطري حينئذٍ انهُ اذا كان الامبراطور يجدّ فيما قال فكلّ ما نادى بهِ عن الصلح بلا ضمّ كان حديث خرافة وان رجاء البلجيك الوحيد في النجاة مما آل اليهِ امرها انما هو انكسار روسيا عسكرياً . وقد ايدت الحوادث هذا الرأي

جرائد هرست

كنا في شتاء سنة ١٩١٦ نتحدث عن ميل اميركا فعرض ذكر برنستورف فقال الامبراطور « لقد عمل فون برنستورف اعمالاً بديعة في بلادكم » . قلت « يقولون في اميركا انهُ لو يكن سياسياً بارعاً غاية البراعة لاضطرّ الى ترك منصبهِ منذ زمان طويل » . قال « كلّ ما سمعت من الانباء دلني على ان مهمتهُ لم تكن سهلة . فان الصحف الاميركية اجمالاً ظهرت بمظهر المعارض لالمانيا ولكني فهمت ان احد اصحاب الصحف عندكم اظهر الوداد والصداقة لنا وهو المستر هرست فانهُ دافع عنّا كثيراً في بلادكم وقال الحق وهو ما لم تفعلهُ اكثر صحفكم »

وقبل تنازل ملك اليونان عاد الامبراطور فاشار الى خطة الصحف الاميركية بقولهِ « ان الطريقة التي تشرح بها الصحف الاميركية وصحف الحلفاء عموماً الحالة في بلاد اليونان لهي كذب وعار . فانها تبدّل الحقائق ووقائع الحال كل التبديل والمستر هرست هو الرجل الوحيد الذي قال الحق واخبر بالواقع على ما أرى . ولست ادري ما يقول الناس الآن بعد ما كشف المستر هرست النقاب عن الحالة كلها » . ولم يمضِ على هذا الحديث الاّ القليل حتى تنازل ملك اليونان

فبان اذ ذاك بجلاء اني الصحف هي الصادقة في كلامها عن اليونان

المستر لويد جورج

ولم يرد ذكر المستر لويد جورج مرة الا ابدى الامبراطور مزيد الامتعاض وافرغ جام مرارته . قال في حديث « ان لويد جورج يخرب انكلترا فهو في الحقيقة اشتراكي ولسان حال لورد نورتكلف حاكم انكلترا الحقيقي الآن. فكيف يسمح ملك انكلترا بمثل ذلك من غير ان يظهر نفسهُ ويعترض عليهِ. وكلّ اسبوع يخطب لويد جورج خطبة جديدة حتى يخيل الى سامعهِ ان معين الناطق لا بدّ ان ينضب وهو يحسب نفسهُ كرومويلاً (١) ثانياً »

ولما كان الناس يشيرون بالبنان الى كرنسكي في روسيا وظهر ان تداعي اركان الاتوقراطية الروسية لا يفيد المانيا كثيراً قال الامبراطور « ان كرنسكي لا يدوم طويلاً فقد جعل نفسهُ اضحوكة وظنّ انهُ نابليون ثانٍ »

وقال مرة اخرى قبل دخول اميركا الحرب « انا اتتبع سير الحوادث في اميركا عن كثب. فان رجال مجلس الشيوخ ليسوا كلهم علينا . فالشيخ ستون مثلاً يصرُّ على الحياد التامّ ومن الاسف ان لا يرى كثيرون رأيهُ »

وقبل سفري الى اميركا زارني الامبراطور في محل عيادتي وقال لي « احذر يا دايفز ان تصدم باخرتك لغماً او ان يطلق عليها التوربيد. والمرجح انهم يجرّون الباخرة الى انكلترا لتفتيشها كما يفعلون بجميع البواخر »

الامبراطورة

رأيت الامبراطورة مع الامبراطور مراراً وتكراراً ولكني لم اجتمع بها قبلما اضطررت الى زيارتي لمعالجة استانيها وكان ذلك سنة ١٩١٢ . وقد استحسنت في هذا المقام ان اذكر بعض الشيء عنها لما قد يكون لها من التأثير في الامبراطور وان كنت اعتقد ان آراءها لم تؤثر كثيراً في آرائهِ. ولطالما كنت اشعر بانها كانت معارضة في الحرب كل المعارضة فان كان ذلك كذلك فلا بدّ ان تكون قد بذلت جهداً عظيماً لكتم حقيقة امرها والظهور بغير مظهرها الحقيقي حفظاً للوفاق وتفادياً من الشقاق

(١) كرومويل احد الذين استبدوا بالامر في انكلترا في القرن السابع عشر

تزوجها الامبراطور سنة ١٨٨١ وهي اكبر منهُ بسنة وكان اسمها فكتوريا اميرة شلزويج هولشتين . وقد قيل ان هذا الزواج دبر لمصالحة مقاطعتي شلزويج وهولشتين اللتين انتزعتهما المانيا من الدنمرك سنة ١٨٦٤ ولكنهُ دبر بوجه خاص لمسئلة تتعلق بالنسل واصلاحهِ . فان ابا الامبراطور الحالي مات بسرطان الحنجرة فرأوا ان مهامّ السلطنة تقتضي ان لا يفسد الدم الملكي بزواج غير ملائم

المقابلة الاولى

قابلت الامبراطورة لاول مرة في قصر بولين وكنت قد دعيت الى القصر فظننت ان الغرض من هذه الدعوة معالجة الامبراطور . فلما بلغتهُ اذا بهِ ينتظرني وهو لابس ملابسهُ العسكرية ونياشينهُ فقال « عسى ان لا اكون قد ضايقتك بدعوتك في مثل هذا الوقت وانما دعوتك لعيادة قرينتي لا لعيادتي فهي متألمة كثيراً وانا على عجل وقد فضلت انتظارك لاشرح لك باختصار ما بها » ثم وصف لي ما اصابها وقال « ان امرأتي متألمة منذ ايام وسيكون عندنا مرقص رسمي يوم الثلاثاء (كانت الزيارة يوم احد) فاريد منك ان تداويها حتى تستطيع الحضور لان الحفلة من أعظم الحفلات الاجتماعية في هذا الفصل . اتبعني فاقدمك اليها »

فدخلنا غرفة واسعة للاستقبال ولم نكد نستقرفيها حتى دخلت الامبراطورة فسلمت عليّ مصافحة . وكان عمرها حينئذٍ ٥٤ سنة وشعرها ابيض كلهُ — ابيضّ قبل بلوغها هذه السنّ بزمان طويل . وقيل انهُ ابيضّ بغتة لشربها بعض العقاقير قصد منع السمن . وكنت اعلم ان الامبراطور يستنكر سمن النساء . فقد قال لي غير مرة عند تركه محل عيادتي « قد ابقيتني عندك طويلاً يا دايفز وانا اتكلم حتى انسدت عليّ نزهة الصباح . ولكن لا بأس سأتنزه في « تيارجارتن » حيث لا مناص لي من تحية جميع اليهوديات السمينات اللواتي يتنزهن في الحديقة » وكان يتلفظ بهذه العبارة الاخيرة وعلى وجههِ سيماء التقزز والاشمئزاز

ودخل طبيب الامبراطورة الخاص وبعض الوصيفات . ففحصت الامبراطورة واشرت بما يجب عملهُ فقال لي طبيبها بصوت واطئ لا بدّ من الاحتراس والسير

في معالجتها على مهل لانى اخاف عليه من ضعف جسمها . اذ لا بدّ من اعطائه مخدّراً لاقل عملية تعمل لانه لا تحتمل الالم . والمخدر الوحيد الذي تقبل به هو الكلوروفورم . فقد حدرتها به احدى عشرة مرة واعرف تأثيره فيها . واخاف اذا يؤثر في قلبها هذه المرة »

وما كاد ينطق بهذا الكلام حتى نفرت وصيفاتها ذات اليمين وذات اليسار وقد عرتهن هزة من الخوف ثم اقبلن عليها يلتمسن ان لا ترضى عمل عملية ما ذلك اليوم بل تحتمل الالم مدة اطول قليلاً لعلهُ يزول من نفسهِ بلا عملية . فاجابتهن الى ما طلبن . ولكن ذلك هاج غيظ الامبراطور فجعل يخطر في الغرفة ذهاباً وايباباً وهو يقول « دعوت الدكتور دريفُر للحضور في يوم احد وانت لا بدّ لك ان تحضري الرقص يوم الثلاثاء والآن تأبين ان تعمل لك عملية . هذا شغل النساء » . ثم التفت اليَّ معتذراً وخرج من الغرفة مسرعاً

وقد وجدت الامبراطورة اصعب مراساً في محلّ عيادتي من الامبراطور . فكانت تلبس برنيطة واسعة وتتبرقع وتأبى وضع البرنيطة والبرقع عند علاجها . ولكنها كانت تذعن اخيراً حينما كنت افهمها اني لا استطيع اتقان عملي وهما لا يزالان مكانهما . وحينما كنت اضع قطعة قطن في فمها كانت تعارض في ذلك بدعوى ان القطن يضايقها فكنت البس القطن لسنيكاً . ولما طال المطال على هذه الحال قلت لها بأدب اني اريد ان اعمل عملي على الطريقة التي اختارها فقالت « اذا كنت تصرُّ على ذلك يا دكتور فلا سبيل امامي الاَّ تركك تجري على طريقتك »

ولم تحدثني الامبراطورة مرة بالشؤون السياسية اذا تكلمت فالغالب ان يكون كلامها في مسائل بيتية . ويقال في المانيا ان همها في هذه الحياة محصور في ثلاثة « كافات » اي ثلاث كلمات تبتدىء بحرف K وهي Kinder و Kirche و Kuche اي الاولاد والكنيسة والمطبخ